الملك المتزهد

الاب بطرس حداد

اشتهرت الحيرة بعماراتها الشامخة ، وقصورها الفخمة ، وكنائسها الجميلة ، وديارتها العديدة ، وكان قصر الخورنق من اجمل القصور واكبرها ؛ وان كان المؤرخون قد اختلفوا في اسم بانيه ، فانهم اتفقوا في القول بانه كان آية في الجمال والعظمة ؛ لا بل كان طرفة من طرف البناء جامعاً بين الفخامة وبهاء الزخرفة وروعة الموضع . فما ان يدخل المرء من بوابته الكبيرة حتى يسير في ممرات واسعة بين اساطين معقودة بالآجر تطل على فناء واسع تتوسطه حديقة جميلة عامرة بالاشجار المثمرة وبالنباتات الفواحة . وينتقل بين الغرف والقاعات وكلها مزخرفة بزخارف نباتية جصية ، بعضها ناتئة واخرى غائرة وملونة بالوان زاهية جذابة.

وكان موقع قصر الخورنق فتاناً اذ كان يشرف على النجف وما يليه من البساتين الفسيحة والجنان الغناء والجداول واشجار النخيل العالية. ولذلك كان ملوك الحيرة يهرعون الى هذا القصر كلما سنحت لهم الفرصة للتخلص من متاعب الحياة اليومية، طلبا للراحة والهدوء .

في يوم من ايام الربيع ترك الملك النعمان بن امرىء القيس (ت ٤٣١م) قصره في الحيرة ، وتوجه الى قصر الخورنق، تتبعه حاشيته واهل بيته ، لقضاء يوم من الراحة والانس في حضن الطبيعة والاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة . وعند المساء جلس في ايوان يشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والاشجار الباسقة ، حيث يسمع الى خرير مياه الانهار، ويمتع نظره بمنظر نهر الفـــرات الجـــاري في الافق البعيـد ، فاعجبه ما رأى من الخضرة والنور والانهار ، بينما كانت فرقة خاصة بالقصر تعزف على الالات فتصدر انغاما جميلة . والقى نظرة متمعّنه على الحاضرين فرأى وجوها فرحة باسمة ، فقال لوزيره وصاحبه : أرايت مثل هذا المنظر قط؟

فقال : لا يا مولاي .

واردف : لو كان يدوم كان أحسن !

انتبه الملك الى هذه الملاحظة فبادره بالقول : فما الذي يدوم ؟

اجاب الوزير : ما سمعته من اسقفنا شمعون في موعظته يوم الاحد الماضي في الكنيسة : ان الذي يدوم ما هو عند الله في الآخرة فذاك يدوم الى الابد.

اطرق الملك هنيهة ثم سأل : فيم ينال ذلك ؟

قال الوزير : انه لصعب يا مولاي اذ يجب ان تترك الدنيا وملذاتها وتعبد الله وتلتمس في كل شيء ما عنده . ان تتخلى عن ذاتك لتكون لله وحده . انه صعب يا مولاي ! ...

لم يعلق الملك على كلام وزيره بل بقي صامتاً مفكراً ...

وكان الحاضرون يتبادلون اطراف الحديث في مختلف المواضيع ، خاصة في الادب والشعر والكلام عن جمال الطبيعة . ولما حان وقت العشاء احضرت انواع الاطعمة

فاكلوا وشبعوا وشربوا ما طاب لهم . لكن النعمان كان واجماً ، يبتسم احياناً ابتسامة باهتة لهذا او ذاك اما فكره فلم يكن مع الحاضرين .

واكمل الحاضرون بعد العشاء جلسة السمر في ضوء الشموع والقمر حتى مضى وقت غير قليل من الليل ، فقاموا ومضى كل واحد الى غرفته ليخلد للنوم بعد ان استأذنوا الملك الذي تمنى لهم ليلة طيبة ونوماً هنيئاً . اما هو فقد بقي وحده يفكر بكلام وزيره : «ان الذي يدوم ما هو عند الله في الآخرة ... ان تترك الدنيا وملذاتها وتعبد الله .. ان تتخلى عن ذاتك لتكون لله وحده ».

وفي هدوء الليل احتدم صراع في نفس الملك : صراع بين الرغبة الكامنة في داخل النفس البشرية للاستحواذ على السلطة ، والتمتع بالجاه والمال والامر والنهي ؛ وبين الرغبة الوثابة المتطلعة للانطلاق في اجواء الله الرحبة .

وراى في قول وزيره : «انه صعب يا مولاي» تحديا لارادته الصلبة ، هو النعمان الذي قاوم وحارب وفرض كلمته ، ابتراجع امام دعوة الله للتخلّي عن كل شيء من اجل الكمال ؟

في الهزيع الاخير من الليل اتخذ قراراً حاسماً لارجعة فيه : ان يترك كل شيء ، العرش والسلطة والجاه والمال ويتفرغ لعبـــادة الله .

عاد الى غرفته وابدل ثيابه فلبس المسوح اي ثوباً خشناً من الصوف وهو لباس الرهبان والمتوحدين ، وخرج من القصر متخفيا كاحد الخدم ، فلم ينتبه اليه احد ومضى في حال سبيله يريد خدمة الله والتعبد له في البرية.

لم يشأ ان يدخل ديراً ، والديارات في الخيرة كثيرة . بل فضل حياة الوحدة في البرية ، فهي حياة كفاح روحي مستمر ، انها حياة البطولة ، فكما كان ينشد البطولة في حياته الملكية ، هكذا اراد البطولة في حياته الروحية ، انه يرفض الحلول الوسط !

عندما انبلج نور الصباح انتظروا ظهور الملك للعودة الى الخيرة فلم يظهر ، وبحثوا عنه في ارجاء القصر فلم يجدوه ، وسألوا

الخدم والحراس عنه فانكروا انهم رأوه ، وعادوا الى الحيرة يبحثون عنه فلعله تقدمهم الى المدينة فلم يعثروا له على اثر ؛ وانتظروا اياماً لعله يظهر فطال الانتظار والمملكة بحاجة الى من يسوسها ، لذلك اقاموا مكانه ابنه المنذر .

اما النعمان فكان يتردد الى الدير المعروف باسم «ديارات الاساقف» ويقع خارج الحيرة في ظاهر الكوفة ، حيث يلتقي باسقف المدينة واسمه شمعون بن حنظله : رجل عركته الحياة ، خبير بالحياة الروحية ، متبحر في كتاب الله . كان النعمان يطلب من الاسقف ان يرشده في حياة الزهد ، وكان الاسقف يشرح له الانجيل الشريف ، خاصة قول المسيح للشاب الغني : « واحدة تنقصك : اذهب فبع ما تملك واعطه للفقراء، فيكون لك كنز في السماء ، وتعال اتبعني » (مرقس ١٠/١٧) ويردد على مسامعه قول الكتاب المقدس : «باطل الاباطيل وكل شيء باطل» (جامعة ١/٢)، وعلمه قراءة الاسفار المقدسة والكتب الروحية والتأمل بها .

وطلب الملك الزاهد من الاسقف حجب خبره عن ذويه لانه سار على هذا الطريق ولا يريد ان يلتفت الى الوراء ، عملاً بقول المعلم : «ما من احد يضع يده على المحراث، ثم يلتفت الى الوراء ، يصلح لملكوت الله» (لوقا ٩ / ٦٢) . فطمأنه الاسقف والتزم بوعده.

قال احد الشعراء ، لعله عدي بن زيد ، منوهاً بالملك المتزهد :

وتذكر ربَّ الخورنق إذ فكر يوماً ، وللهدى تفكير

سره ملكه وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير

فارعوى جهله ، فقال : وما غبطة حي الى الممات يصير ؟

مضت سنوات عديدة على غياب النعمان وكاد الناس ان ينسوا امره ، حتى أشاعَ بعض رجال القوافل خبراً مفاده انهم لمحوه بالبسة رثة يجوب في انحاء البادية ، فعاد اسمه الى الاذهان ، واطلقوا على الملك المتزهد اسم «السائح» وبهذا الاسم عرف في كتب التاريخ.